إستراتيجيات المتكلِّم واستجابة المخاطب البليغة
مقاربة بلاغيّة لمسامرات أبي حيّان التّوحيديّ في كتاب "الإمتاع والمؤانسة"

د. كريم الطيبي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين- تطوان (المغرب)
Karimtaibi1988@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/07/ 02	تاريخ القبول: 2021/07/28	تاريخ النشر: 2021/08/01

مُلخّص البحث

تهدف هذه الدّراسة إلى مقاربة نوع نثريّ عربيّ قديم من منظور البلاغة الجديدة وما قدّمته من مقولات وأدوات إجرائية، ويتعلّق الأمر ببلاغة الحجاج التي تتتبّع التّقنيات الحجاجية التي يوظفها المتكلّم بهدف استمالة المخاطب والتأثير فيه، وبلاغة الجمهور التي تفتحص أثر هذا الخطاب البلاغيّ الحجاجيّ في المخاطب وطبيعة استجابته وردود فعله. وإذا كانت الأولى أي بلاغة الحجاج ملائمة لمقاربة النّص الأدبيّ العربيّ القديم لما لهذا الإنتاج من أبعاد حجاجيّة ومقاصد تداوليّة، فإن المقاربة الثانيّة تبدو غريبة للوهلة الأولى عن طبيعة هذه النّصوص، خصوصا مع اقتران بلاغة الجمهور بالخطابات الشّفوية المعاصرة وملائمتها للبيئة الواقعية العموميّة والفضاءات الرّقمية[1]. وحتّى نبيّن انسجام المقاربتين مع الخطاب، قيد الاشتغال، اخترنا الانطلاق من محور تجنيس كتاب الإمتاع والمؤانسة بوصفه مسامرات شفوية دارت في مجلس الوزير ابن سعدان وقام أبو حيّان التّوحيدي بتدوينها بعد ذلك في كتاب بطلب من أبي الوفاء المهندس. هذه الخصوصيّة الأجناسية تسمح بشرعية الإنصات لنبض هذا النّص من منظوريْ بلاغة الحجاج وبلاغة الجمهور؛ إذ تسمح لنا الأولى بالوقوف على الاستراتيجيات الحجاجيّة والحِيل الخطابية التي استثمرها المتكلم (التوحيدي) للتّأثير في مخاطبه، وتتيح لنا الثانية تلمّس طبيعة استجابات المخاطب (الوزير ابن سعدان) وأشكال تفاعله مع الخطاب.

مدخل نظريّ:

تتبنّى هذه الدّراسة ما أتاحته البلاغة الجديدة من أدوات ومفاهيم وتصوّرات، ولا نقصد بالبلاغة الجديدة، ههنا، سوى تلك المقاربة التي تتجاوز الأبعاد الفنّية والجمالية لتركّز على رصد البعد الحجاجيّ والوظيفيّ للخطابات، إنّها المقاربة التي "تنظر إلى النص من زاوية تأثيره في المتلقي"[2]، والتي تنبني على بعد "تداولي لا يكتفي بالنظر إلى النص في علاقاته الداخلية ولكن في علاقاته بالمتلقي والسياق"[3]. وتعدّ بلاغة الحجاج من الاتّجاهات التي انبثقت من معين البلاغة الجديدة، وتتّجه نحو الاهتمام بالخطاب من خلال افتحاص مختلف المكوّنات والتقنيات والاستراتيجيات التي بها يصير الخطاب بليغا ومقنعا ومؤثّرا، وتعود هذه العناصر إلى مقولات ثلاث هي: الإيتوس (أخلاق المتكلم وصفاته)، والباتوس (إثارة عواطف المتلقي)، واللوغوس (الخطاب المنطقي العقلي). وتسعفنا البلاغة الحجاجيّة في الكشف عمّا تضمره مسامرات أبي حيّان التوحيدي من أساليب تأثيرية وتقنيّات حجاجية وحيل خطابية؛ فهي – كما عرّفها أرسطو – :"فن استخلاص من كل موضوع درجة الإقناع التي يحتويها"[4]. وتلتقي بلاغة الحجاج في التّصور مع بلاغة الجمهور[5] أو المخاطب؛ ذلك أنّها تهتم بعملية التأثير في متلقي الخطاب وردود أفعاله وأنماط استجاباته وأشكال تفاعله وطبيعة انطباعاته وانفعالاته. وتنطلق في ذلك من مبدإ مركزي يرى في" تشكل الخطابات وأدائها على نحو مخصوص قد يُنجز وظائف وتأثيرات واستجابات مخصوصة... [إذ] ثمة علاقات وثيقة بين اختيار المتكلم لطرائق محددة للقول والأداء والآثار التي يتركها في المتلقي"[6]. وعليه، فإن بلاغة المخاطب بلاغة تعتني بالمكوّن الثاني في عمليّة التخاطب وهو المخاطب، وتتتبّع استجابته إزاء الخطاب "تلك الاستجابة التي تُعد تجليا لتحقق الإقناع والتأثير اللذين يرومهما كل خطاب تداولي"[7]. وهذه الاستجابة لا يمكن تعرف ملامحها وتشكلاتها وطبيعتها إلا بافتحاص الخطاب ورصد الحيل التي يسخّرها المتكلم والفخاخ البلاغية[8] –بتعبير عماد عبد اللطيف- التي ينصبها في بقاع الخطاب ويواريها؛ لأنّ "الاستجابات الاستحسانية التي يُنتجها الجمهور لا تتأثر بمحتوى الخطبة ومعانيها ودلالاتها والقرارات التي تقدمها والمواقف السياسية التي تروجها فحسب، بل إنها تتأثر –ربما بدرجة أكبر- بطرق تشكل النص وأدائه"[9]. وللوقوف على هذه الآليات والوسائل التعبيرية والحجاجية، لا بدّ من أن "ننظر مبدئيا إلى النص من زاوية نظر القارئ ونجعله تابعا لمقصدية الأثر"[10]. من هنا جاء الاهتمام

بالمخاطب في هذه الدّراسة، وذلك "بوصفه عنصرا مؤسِّسا للممارسة البلاغية وأداة لها"[11]، ساعين إلى استقراء تفاعله مع خطاب المتكلم، وقد اتّخذنا من مسامرات أبي حيّان التوحيدي متنا للتطبيق والاشتغال. وقبل أن نخوض في معالجة الإشكال نقف أولا عند تجنيس الكتاب، محاولين لفت النظر إلى منطقة مغمورة في تراثنا النثريّ تجعلنا نقر بأن الأدب القديم مجال خصيب للدراسة والتحليل من منظور التصورات المعاصرة، وهو ما يعني مراجعة المسلمة التي تفرض بلاغة الجمهور على خطابات تفاعلية معاصرة حصرا[12].

أولا-في تجنيس كتاب الإمتاع والمؤانسة:

يعدّ تجنيس كتاب الإمتاع والمؤانسة من المسائل التي استنفرت اهتمام الدَّارسين والباحثين الذين قاربوا هذا الكتاب، وإن كانت محاولاتهم التجنيسيَّة تحوم حول نوع واحد إلا أن هناك بعض الاختلافات الجوهريّة الملموسة في تجنيسهم. والملاحظ أن أغلب الباحثين ذهبوا إلى الإقرار – مع محققيْ الكتاب أحمد أمين وأحمد الزين- أن الكتابَ "هو مجموع مسامرات في فنون شتى حاضر بها (أبو حيان التوحيدي) الوزير أبا عبد الله العارض في عدة ليال"[13]، وهناك من حَادَ عن هذا المنحى ليعتبر كتاب الإمتاع والمؤانسة محاورات[14]، بيد أن المقاربات المستجدّة التي تصدّت لكتابات التوحيدي، أعادت النَّظر في تجنيس "الإمتاع والمؤانسة"، إذ أكّدت أنه كتاب ينتمي لجنس الترسّل، وجاء في صيغة مسامرات، أي إن جنسه العامّ هو الرسالة، ولكن بنيته الداخلية عبارة عن مسامرات[15].

وعلى الرّغم من اختلاف الباحثين، إلا أنّ هناك اتفاقا يؤكّد الطابع الشفوي لمضامين الكتاب؛ فهو مسامرات جرت بين أبي حيّان التوحيدي والوزير البويهي ابن سعدان، ثم قام التوحيدي بكتابتها وتسجيلها على شكل رسالة بطلب من صديقه أبي الوفاء المهندس، وقد في جاء في متن الكتاب ما يؤكّد هذا:" إلا أنّ الخوضَ فيه على البديهة في هذه السّاعة يشُقّ ويصعب بعقب ما جرى من التفاوض، فإن أذنت جمعته كله في رسالة تشتمل على الدقيق والجليل، والحلو والمرّ، والطرمي والعاسي، والمحبوب والمكروه؛ فكان من جوابك لي: اِفعل"[16]. يتَّضح، إذًا، أنّ أبا الوفاء قَبِل مُقترح التوّحيدي القاضي بتجميع "المادة الشفوية" وما جرى من الحوارات بينه وبين الوزير

ابن سعدان وتحويل كل ذلك إلى رسالة، ومن ثم فكتاب الإمتاع والمؤانسة في مجمله رسالة كتبها أبو حيّان لصديقه أبي الوفاء يحكي فيها تفاصيل الأحداث التي وقعت في مجلس الوزير، والملاحظ أنّ الباحثين الّذين اعتبروا الكتاب مسامرات إنَّما صدروا عن تجنيس الكتاب باعتباره "مادة شفوية"، أمّا الكتاب، في صيغته النهائية؛ أيْ بعد الانتقال من مرحلة الشفهيّة إلى مرحلة الكتابة، رسالة صاغها التَّوحيدي صياغة مخصوصة لكي تستجيب للمعايير والضَّوابط التي حدّدها أبو الوفاء.

ويشكّل هذا الكتاب نموذجًا مهمًّا لحضور الذات الكاتبة[17]؛ فقد ضمّن التوحيدي مقاطع وفقرات من حياته ومعاناته وتجاربه ومنازعه ونوازعه واهتماماته وانشغالاته، حيث تبرز ذاتية المتكلم بوضوح وشفافية، وتصدح الأنا بوجودها وتصير هوية مكتوبة تنسرب في الملفوظات، وحتَّى في الملفوظات التي تتوارى فيها الذات المتكلمة عن الظهور وتتزيَّى قناع الموضوعيّة، فإنّ الذَّاتية تتبدّى من خلال خطط التَّواصل، واستراتيجيات الكلام، وانقداح المعارف، والاختيارات الأسلوبيّة، وطريقة اصطفاء الأخبار[18]. وتصدح تجلّيات المخاطب كذلك في متن هذا الكتاب، وهو ما يخدم تصوّر هذا الدّراسة التي تنطلق من الاشتغال على افتحاص حيل المتكلم وتقنيات الحجاج الذي وظّفها للتّأثير في مخاطبه، وذلك ضمن غاية تداولية تروم ترك الأثر الإيجابيّ في الوزير للفوز بالقرب منه، والظفر باحتواء السلطة له، كما تقف الدّراسة عند استجابات المخاطب وتكشف دوره المهمّ في توجيه الخطاب.

ثانيا- إستراتيجيات المتكلّم:

لا يخفى عن متتبّع سيرة أبي حيّان التّوحيدي القهر الاجتماعي والبؤس النفسي الذي رافق حياة هذا الأديب، ومدى إحساسه بظلم النّاس له، وعدم تقدير السلطة لموهبته ومكانته العلمية والأدبية، وقد كان أكبر طموحه هو أن يحظى بتقدير الآخرين وتشمله السلطة برعايتها واحتوائها، وهو ما عبّرت عنه نصوص عديدة تكشف غايته النّفعية التي ترتبط بالظّفر بالمنصب وتحقيق الاستقرار النفسي والاجتماعي عبر الانضواء تحت قبّة البلاط، يقول التوحيدي:" هذهِ الْعَاجِلَةُ مَحْبُوبَةٌ، والرَّفاهِيّةُ مَطْلُوبَةٌ، والْمَكَانَةُ عندَ الْوُزَرَاءِ بِكُلِّ حَوْلٍ وقُوَّةٍ مَخْطُوبَةٌ، والدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَعَذْبَةٌ نَظِرَةٌ"[19]. فقد آمن هذا الأديب بشرعية التقرّب من

السلطة، للحاجة الماسّة إلى دعمها واحتوائها. ولم يكن ليفوّت فرصة سنحت له بأن يحضر مجالس في حضرة الوزير البويهي عبد الله العارض (ابن سعدان) بتدخّل من صديقه أبي الوفاء المهندّس، فقد شكّل هذه المجالس سببا في تحقيق تطلّعاته، ومن ثمّ، فإنّ النّجاح في مهمة مجالسة الوزير ونيل رضاه وترك الانطباع الإيجابيّ في نفسه، كل سبيل نحو تحقيق الحظوة لدى السلطة. وهو ما دفع أبا حيّان إلى استثمار كل الإمكانات الحجاجيّة والحيل البلاغيّة بهدف التأثير في هذا المخاطب، ويمكن رصد أهمّ الحيل التي توسّل بها المتكلم في الاستراتيجيات الآتية.

1- الاستدراج:

انتهج المتكلم الاستدراج بوصفه حيلة بلاغيّة جديرة بأن تستميل الوزير ابن سعدان من مقامه السامي إلى مقام أقل يتلاءم مع طبيعة أبي حيّان التوحيديّ بوصفه أديبا متواضعا وورّاقا فقيرا لا يجيد "إيتيكيت" لقاء الوزراء ومحاورة السلاطين وقوانين المجالس وآدابها، ولا هيأة له في لقاء الكبراء ومحاورة الوزراء[20]، كما كان "صوفي السّمت والهيئة"[21]، ومن ثمّ، فدرءا للفشل في هذه المهمّة، حاول استدراج المخاطب إلى مقامه، وتقويض مبدأ "الاستعلاء" التي تفرضه شروط المقام ورسميات المجلس، لذلك سارع أبو حيّان إلى تأسيس شروط مجلسية مغايرة تنسجم مع طبيعة تكوينه ومجال تميّزه، ويكشفها قوله:"قُلْتُ: يُؤْذَنْ لي في كَافِ المخَاطَبَةِ، وَتَاءِ المواَجَهَةِ، حتَّى أتخَلَّصَ مِنْ مُزَاحَمَةِ الكِنَايَةِ وَمُضَايَقَةِ التَّعْرِيضِ، وَأَرْكَبَ جُدَدَ القَوْلِ مِنْ غَيْرِ تَقِيَّةٍ ولا تَحَاشٍ، وَلا مُوَارَبَةٍ ولا انْحِيَاشٍ"[22].

يتّضح أن المتكلم حاول أن يستدرج المخاطب إلى نسقه الفكريّ ومقامه الاجتماعيّ، محققا ما سماه كينيث بيرك بمبدإ "التماهي" الذي يشير إلى أنّ "الإقناع يحدث عندما يقوم البلاغيون بخلق روابط مع جمهورهم، والتحدث إليهم بلغة الجماهير نفسها"[23]. وتدعيما لهذه الاستراتيجيّة انتهج المتكلم حيلة أخرى هي الموسوعيّة.

2- الموسوعية:

بعد استدراج المخاطب في تأسيس نسق تواصليّ تفاديّا لأي أخطاء بروتوكولية تكون سببا في حرمان التوحيدي من طموحه، انتقل إلى حيلة استراتيجية أخرى كشفها في نصوصه؛

فالخطاب قدّم متكلما موسوعيّا يتنقّل بين العلوم، ويصول بين المعارف، ولا يتردّد في التَّفاعل مع أسئلة الوزير ابن سعدان على الرَّغم من صدورها عن عفوية وتلقائية ولا خيط ناظم بينها[24]. ولم تؤثر الانشغالات الثقافيّة المتنوعة للوزير في مشاركة التوحيديّ وتفاعله في المسامرات، ذلك أنه متمّكن من علوم شتى. والظاهر أن شخصية التوحيدي تستجيب لمعايير مجلس الوزير، لأن صفاته الثقافية وما يمتاز به من عمق في التَّفكير، وسعة في الاطلاع، واتساع للمدارك، وتجارب في الحياة، وإلمام بالمعارف، كلّ هذا جعله مؤهلا لأداء مهمته أداء أشاد به الوزير ابن سعدان نفسه؛ فقد ذكر في خاتمة أحد المجالس ما يلي:" هَاتِ فَائِدَةَ الوَدَاعِ، فَقَدْ بَلَغْتَ في المؤانَسَةِ غَايَةَ الإمْتَاعِ"[25]. كما أن هذا الوزير البويهي قد وصلته الصُّورة الثقافية الإيجابية التي راجت عن أبي حيّان التوحيدي، وممّا يؤكد هذا قوله في مستفتح الليلة الأولى:" قَدْ سَأَلْتُ عَنْكَ مَرّاتٍ شَيْخَنَا أبا الوفاء، فذَكَرَ أَنَّكَ مُرَاعٍ لأَمْرِ البِيمَارسْتَانِ مِنْ جِهَتِهِ، وَأَنَا أَرْبَأُ بِكَ عَنْ ذلكَ، وَلَعَلّي أَعْرِضُكَ لشَيءٍ أَنْبَهَ مِنْ هَذا وأَجْدَى، ولذَلِكَ فَقَدْ تَاقَتْ نَفْسِي إلى حُضُورِكَ للمُحَادَثَةِ والتَّأْنِيسِ، ولأتعَرَّفَ مِنْكَ أَشْيَاء كَثِيرَةً مختلِفَةً تُرَدَّدُ في نفسي علَى مَرِّ الزَّمَانِ..."[26]. يبرز هذا الملفوظ شغف الوزير وتلهّفه إلى ملاقاته؛ فقد سأل "مرات" أبا الوفاء، و"تاق" إلى سماع حديثه، ولا شكّ أن هذه الصّورة الجاهزة أو القبلية قد أسهمت في إثارة مشاعر الرغبة والاشتياق هذه، إذ يُعبّر قول الوزير عن اقتناع راسخ بأنَّ أبا حيّان نموذج للمثقّف الجدير بالمجالسة ومبادلة الأحاديث، فهو يعبّر عن غرضه بما يوحي بأن في التوحيدي الأديب والمثقف ما يشفي غليله، ويكبح جماح أسئلته التي تتردّد منذ زمان ولم يجد مجيبا لها. على خلاف ما وصف به أبا الوفاء المهندس:" وأَمَّا أبو الوَفَاءِ فَهُوَ والله ما يَقْعُدُ بِهِ عَنِ المؤانَسَةِ الطيِّبَةِ والمساعَدَةِ المطْرِبَةِ والمفَاكهَةِ اللَّذيذَةِ والمواتَاةِ الشَّهِيَّةِ، إلا أنَّ لَفْظَهُ خُرَسَانيٌّ، وإشارَتَهُ ناقِصَةٌ، هذا مَعَ ما اسْتَفَادَهُ بمقامِهِ الطَّويلِ ببَغْدَادَ، والبَغْدَادِيُّ إذا تخَرْسَنَ كانَ أَعْلَى وَأَظْرَفَ مِنَ الخُرَاسَانيّ إذا تَبَغْدَدَ"[27]. يشير هذا الملفوظ إلى المقارنة المضمرة التي يمكن استشفافها بين شخصيتين: الأولى لأبي حيان التوحيدي الذي جمع كل خصائص الجليس المرغوبة لدى الوزير، والثانية لأبي الوفاء المهندس الذي نفّرتْ عجمته الطّافحة الوزير عن مجالسته. وقد أسهمت عوامل كثيرة في تكوين التوحيدي، ولعل أبرزها عمله في النسخ والوراقة، وتتلمذه على علماء كبار[28].

وقد تجلّت موسوعية أبي حيّان في تنقّله وارتحاله بين العلوم والمجالات؛ فالكتاب يحوي ضروبا معرفيَّة مختلفة، ويتصدّى لقضايا متنوعة: لغويّة، فلسفيّة، معجميّة، نحويّة، سياسيّة، أخلاقيّة، دينيّة، اجتماعيّة، تاريخيّة، ثقافيّة، علم الكلام، الترجمة، التصوف، الضحك، المجون، التفسير...إلخ. ويمكن استجلاء نباهة أبي حيان وإحاطته ونبوغه في ذخيرته الواسعة والمنبسطة، والتي تسترفد من منابع ثرَّة: الثقافة اليونانية، والقرآن الكريم، والسنة النبوية، وأشعار العرب، والحكم، والأمثال، ومأثور القول. كما يشهد تقديم المادة المعرفية في أنواع أدبية متعدّدة، وأنماط خطابية متشعّبة، على حنكة التوحيدي وأصالته وموسوعيَّته، فنحن نلفي في كتابه: الرسائل، والوصايا، والمناظرات، والمفاضلات، والأخبار، والمحاورات، والأدعية، والمناجيات...إلخ

هذا التنوّع المعرفيّ الذي يطبع مسامرات الإمتاع والمؤانسة ارتبطت بوظيفة تأثيريّة تداوليّة؛ إذ رام المتكلم أداء وظيفتيه التثقيفية والإمتاعية اللتين أنيطتا به، وذلك حتى ينال رضا الوزير ابن سعدان، ويحقق الحظوة في مجلسه، وتقربنا أحد الملفوظات من هذا الملمح، فقد جاء في متن الرسالة:"فقُلْتُ قَبْلَ: كُلُّ شَيءٍ أُرِيدُ أَنْ أُجَابَ إليهِ يَكُونُ ناصِرِي عَلَى مَا يُرَادُ مِنّي إنْ مُنِعْتُهُ نُكِلْتُ، وَإِنْ نُكِلْتُ قَلَّ إفْصَاحِي عَمَّا أُطَالِبُ بِهِ، وَخِفْتُ الْكَسَادَ، وَقدْ طَمِعْتُ بالنَّفَاقِ، وانْقَلَبْتُ بالخَيْبَةِ، وَقَدْ عَقَدْتُ خِنْصِرِي عَلَى المسْأَلَةِ. فَقَالَ –حَرَسَ الله رُوحَهُ-: قُلْ – عَفَاكَ الله - مَا بَدَا لَكَ، فَأَنْتَ مجابٌ إِلَيْهِ مَا دُمْتَ ضَامِنًا لِبُلُوغِ إرَادَتِنَا مِنْكَ، وَإِصَابَةِ غَرَضِنَا بِكَ"[29]. يبرز هذا الملفوظ رهان التوحيدي على تحقيق غاية مجالسة الوزير في الإمتاع والتأنيس، وهو ما يسوّغ تفاوض المتكلم حول ما سيحول دون بلوغ هذا المرام، والتماسه تجاوز العراقيل التي من شأنها أن تشوّش عليه أثناء أداء مهمّته. ونفهم من هذا رغبة التوحيدي في تسخير كل إمكاناته الموسوعية ومؤهلاته الثقافية ليحقِّق غاية "المحادثة والتأنيس"، وما الظهور بمظهر الأديب الموسوعيّ إلا شكل من أشكال التَّأثير، إذ غاية المتكلم إثارة عواطف الاستحسان والرّضا لدى الوزير ابن سعدان.

3- الإضحاك:

لم يكتف التوحيديّ باستدراج مخاطبه وتشغيل نفسه الموسوعي في المجالسة، بل سخّر إمكاناته الترفيهية وأسلوبه الساخر واستعاد ذاكرته الهزلية ووظفها في المسامرات التي جمعته بالوزير، ويُبرز النَّسيج النّصّي للمسامرات متكلّما ينزع نحو الإمتاع والتأنيس والإضحاك والتنفيس، ويحشد كل مؤهلاته التي تفي بهذا الغرض؛ فمن المعلوم أن تحقيق وظيفة التواصل الأساس لا تقتضي متكلما موسوعيا جادّا يُغرق المجلس بالمعارف الجمّة، ويرهق كاهل الوزير بالقضايا الشائكة[30]، وإنّما – إلى جانب ذلك - يستوجب متكلّما خفيف الظِّل وفكها ضحوكًا؛ إذ كيف للوزير ابن سعدان والقارئ بصفة عامّة أن "يحتمل هذا المضمون الجاد من دون وسيلة لذيذة تحبّبه إليه؛ من نوادر وأخبار هزلية وماجنة وغريبة، يوردها المؤلف بين ثنايا نصوصه الجادّة حتى يفلح في توصيلها إليه؟"[31].

إن ارتكان المتكلم إلى تجسيد دور المؤنس والمضحك يرجع إلى مقصد أساس هو نيل رضا الوزير البويهي، عبر تأدية الدَّور المنوط به في المجلس، مثقِّفًا ومؤنسًا وممتعًا، وهو ما يسوّغ دَيْدَن التوحيدي نحو الظهور بمظهر الجليس النَّموذجيّ الَّذي يبتغي سبيلا وسطًا ومعتدلا بين الجد والهزل، والوقار والمجون، والتّعقّل والجنون، إنه لا يركن إلى الجدّية المفرطة، ولا ينساق إلى الهزل حدَّ الميوعة، بل إنه بين ذلك يتقلّب حسب إملاءات المقام وشروط تفاعل المتلقّي[32]. ويمكن تلمّس هذا الملمح بصورة واضحة في "ملحة الوداع" التي تختتم بها مسامرات المجلس؛ فهي "شكل من أشكال الفكاهة، وإنما الفكاهة كما قد علم القارئ لون من ألوان اللَّطائف التي تزيّن بها الموائد في المآدب"[33]. وتضمّ ملحة الوداع في الإمتاع والمؤانسة أنماطًا هزليّة مختلفة كالملح والطرائف والنوادر والأشعار وأخبار المجون وأحاديث الحمقى[34].

وقد استطاعَ المتكلّم بما يمتاز به من مهارات وملَكات، تحقيق الدَّور الذي أنيط به؛ إذ تؤكّد ملفوظات عديدة على لسان الوزير فَلاح التّوحيدي في وظيفته.

لقد وقفنا فيما سبق على أبرز الحيل البلاغية والاستراتيجيات الحجاجية التي وظّفها المتكلم للتأثير في المخاطب ونيل رضاه وتحقيق القرب منه. وسنحاول في المحور التالي الوقوف عند حضور المخاطب ورصد طبيعة استجاباته وردود أفعاله.

ثالثا- استجابات المخاطب البليغة:

نروم في هذا المبحث افتحاص تجلّيات المخاطب ورصد استجاباته وتفاعلاته، وذلك من أجل استشفاف بلاغة المخاطب في مسامرات الإمتاع والمؤانسة، ومن ثم فإنّ الوقوف عند "الاستجابات المادية الملموسة لخطاب ما في سياق محدد"[35] من صميم إجراءات التحليل البلاغي الذي يكشف بلاغة المخاطب، وانطلاقا من هذا: ما دور المخاطب (الوزير ابن سعدان) في مسامرات الإمتاع والمؤانسة؟ وما مدى حضوره في توجيه الخطاب وتكوينه؟ وما تجلّيات استجاباته وما طبيعة ردود أفعاله في ملفوظات المسامرات؟

يَحْضُر الوزير ابن سَعْدان بوصفه المخاطب الرَّئيس الذي توجّه إليه التَّوحيدي بالخطاب في مسامراته التي شكّلت مادّة رسالة الإمتاع والمؤانسة، ولا يكتفي هذا المخاطب بالتَّلقّي السِّلبيّ للخطاب بل إنَّه لا يَلْبَث يتحوَّل من مُنْفَعِلٍ إلى مُخاطب فاعل يتَجَاوب مع المحاورات المعروضة استفسارًا ونقدًا وإشادةً، وهذه التدخُّلات الَّتي أعرب عنها هذا الوزيرُ سمحتْ بتوطين ذاته وردود فعله وتفاعلاته؛ فقد برزَ في صورة المثقَّف الَّذي يمتلك اطّلاعا واسعا على مُختلف القضايا.

وأول ما يمكن الإشارة إليه في سياق حضور المخاطب وتأديته دورا مهمّا يكشف إسهامه في السيرورة التكوينية لمسامرات الإمتاع والمؤانسة هو توجيه المتكلّم وتنصيص قواعد الخطاب التي ينبغي السير على هديها، ويتجلّى هذه في قوله:" فأجِبْني عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ باسْتِرْسَالٍ وَسُكونِ بَالٍ، بمِلْءِ فِيكَ، وَجَمِّ خَاطِرِكَ، وحَاضِرِ عِلْمِكَ، وَدَعْ عَنْكَ تَفَنُّنَ البَغْدَادِيّينَ، مَعَ عَفْوٍ لَفْظِكَ، وَزَائِدِ رَأْيِكَ، وَرِيْحِ ذِهْنِكَ، ولا تَجْبُنْ جُبْنَ الضُّعَفَاءِ، ولا تَتَأَطَّرْ تَأَطُّرَ الأغْبِيَاءِ، واجْزِمْ إذَا قُلْتَ، وَبَالِغْ إذَا وَصَفْتَ، واصْدُقْ إذَا أَسْنَدْتَ، وافْصِلْ إذَا حَكَمْتَ، إلا إذَا عَرَضَ لَكَ مَا يُوجِبُ تَوَقُّفًا أَوْ تهادِيًا... وكُنْ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنّي سأَسْتَدِلُّ ممّا أَسْمَعُهُ مِنْكَ في جَوَابِكَ عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ عَلَى صِدْقِكَ

وَخِلافِهِ، وَعَلَى تَحْرِيفِكَ وَقِرَافِهِ"[36]. يتّضح من خلال هذا النّص أن المخاطب أسهم في تأسيس نظام خطابيّ وجّه به المتكلّم حتّى يلتزم به ويسير على منواله، وهو ما يكشف أهمّية المخاطب وحضوره في عملية الكتابة. وإذا كان هذا نموذجا للمخاطب بصفة عامّة، فابن سعدان، في سياق المسامرات، يمثل نموذجا من النماذج التي تُجسّد انفتاح مؤسّسة السُّلطة على أدب المجالس بوصفها مؤسسة ثقافيَّة بنيويَّة مهمّة في القرن الرابع الهجري، وتُلقي ليالي التَّوحيدِيّ الضّياء على مُجريات هذه المجالس، كما تضيء لنا الجانب الآخر من هُوية مخاطبه السِّياسيَّة، وهي الهُوية الثقافيّة المعرفيّة؛ فرسالة الإمتاعِ والمؤانسةِ تبرزُ مُخاطبا شغوفا بالمعرفة وأحاديث المثقّفين والعلماء؛ إذ إنّ الوزير ملازم للمجلس، ومداوم على طرح القضايا التي تشغله متطلّعا إلى الإجابات التي تكبح نهمه المعرفي، وحريص على مواكبة الحَراك الثَّقافيّ الَّذي ينشط في المجالس الأخرى، وهو ما يبرز قيمة الثَّقافة في هذا العصر.

لقد تجلّى المخاطب في صورة "مثقف نموذجيٍّ له مخزونٌ معرفيّ يستمدّ منه أحيانا بعض التَّعاليق والآراء التكميليَّة لإثراء الحديث ولديه رغبة ملحة في العلم لذلك تتخذ مداخلاته في الغالب صيغتيْ الطَّلب والاستفهام"[37]. ويمكن استجلاء هذا من خلال استفتاحه للمسامرات بأسئلة متنوعَّة في مجالات معرفيَّة مختلفة تضمر حرصه واهتمامه بالعلم والمعرفة. ونُمثّل بالأمثلة الآتية لنرصد الاهتمامات الثقافيّة المتنوّعة لديه:

- أتُفَضِّلُ العَرَبَ عَلى الْعَجَمِ أَمِ الْعَجَمَ عَلَى الْعَرَبِ؟
- مَا السَّكِينةُ؟
- ما الفَرْقُ بين الإرَادَةِ والاخْتِيارِ؟
- ما الفَرْقُ بَيْنَ المحبّةِ والشَّهْوَةِ؟
- كُنْتَ حَكَيْتَ لي أنّ العَامِرِيّ صَنّفَ كتابًا عَنْوَنَهُ بإنقاذِ البَشَرِ من الجبرِ والقَدَرِ فكَيْفَ هذا الكِتَابُ؟
- ما تحفَظُ في تَفْعَال وتِفْعَال، فقد اشْتَبَهَا؟
- كنتُ أُحِبُّ أنْ أَسْمَعَ كَلامًا في كُنْهِ الاتِّفَاقِ[38]

والملاحظ أنَّ اهتمامات الوزير لا تميل إلى مجالٍ محدَّدٍ، بل إنَّها تنطوي على تنوعٍ واضحٍ، كما أنّ الوزيرَ لا يفتأُ، في أحيان كثيرة، يستسلم لنهمه المعرفي فتنْقَدح أسئلة جَمَّة يغرق بها التَّوحيدي ويطالبُه بالبحثِ عن أجوبتِها ويسجّلها له في رقعة، كما يؤكِّدُهُ هذا الملفوظ:" ما النَّفْسُ؟ وَمَا كمَالُها؟ وَمَا الَّذِي اسْتَفَادَتْ مِنْ هذا المكَانِ؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ بَايَنَتِ الرُّوحَ؟ ومَا الرُّوحُ؟ وَمَا صِفَتُه؟ وَمَا مَنْفَعَتُهُ؟ وما المانِعُ مِنْ أنْ تَكُونَ النَّفسُ جِسْمًا أوْ عَرَضًا أو هما؟ وَهَلْ تَبْقَى؟..."[39]

ويُعبِّر الوزير عن أهمية هذه الأسئلة قائلا:" فإنَّ هَذا وَمَا أَشْبَهَهُ شَاغِلٌ لِقَلْبي، وَجَاثِمٌ في صَدْري، وَمُعْتَرِضٌ بَيْنَ نَفْسِي وَفِكْري، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَبُوحَ بِهِ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَقَدْ بَيَّنْتُهُ في هَذِهِ الرُّقْعَةِ"[40].

تبرز هذه الأسئلة، إذا، مخاطبا يضطلع بدور فعّال في سيرورة الخطاب، والتحكّم في توجيه دفّة الحديث، وانتقاء المواضيع وطرحها. كما تكشفُ ملفوظات عديدة تمكّن المخاطب من الكفاياتِ التواصليَّة[41]، من خلال حضوره التّواصلي وتفاعله مع المتكلّم تأويلا وتفسيرا ونقدا، زمن ذلك هذا الملفوظ:" لِمَ لا تداخلُ صاحبَ ديوانٍ ولِمَ ترضى لنفسكَ بهذا اللَّبوس؟ فقلتُ: أنا رجلٌ حبّ السلامةِ غالبٌ عليّ، والقناعةُ بالطفيفِ محبوبةٌ عندي. فقال: كنَّيْتَ عنِ الكَسَلِ بحُبِّ السَّلامَةِ، وَعَنِ الفُسُولَةِ بالرِّضا باليسيرِ"[42]. يُظْهِر تعليق المخاطب/ الوزير عن جواب التوحيديّ قدرةً تأويليّةً نافذةً، إذ تفطّن إلى مقاصد أبي حيّان الَّذي ظل يطمح لتحقيق حلم وحيد هو الارتماء في أحضان السلطة لخدمة الوزراء وضمان حياة هنيئَة. كما نتلمّسُ المهارات الحواريَّة - الَّتي تكشفُ موسوعيَّةَ الوزير وإلمامه بأبجديَّات التَّواصل - في تعقيبِهِ عن اعتذار التَّوحيدي بعدم استطاعة الحديث عن بعض الشَّخصيَّاتِ:" قلتُ: وَصْفُ هؤُلاءِ أَمْرٌ مُتَعَذّرٌ، وَبَابٌ مِنَ الكُلْفَةِ شَاقٌّ، ولَيْسَ مِثْلِي مَنْ جَسَرَ علَيْهِ، وَبَلَغَ الصَّوابُ منه، وإنّما يَصِفُهُمْ مَنْ نَالَ دَرَجةَ كُلِّ وَاحِدٍ منْهُمْ، وَأَشْرَفَ بعد ذلك عَلَيهِمْ، فعرفَ حَاصِلَهُمْ وَغَائِبَهُمْ، وَمَوْجُودَهُمْ وَمَفْقُودَهُمْ. فَقَالَ: هَذا تحايُلٌ لا أَرْضَاهُ لَكَ، وَلا أسْلَمُهُ في يَدِكَ، ولا أَحْتَمِلُهُ مِنْكَ، ولم أَطْلُبْ إلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُمْ بما هُوَ مَعْلُومُ الله مِنْهُمْ... إنَّمَا أَرَدتُ أن تَذْكُر مِن كُلِّ واحِدٍ ما لاح منهُ لعينيكَ، وَتجلَّى لبَصِيرتِكَ، وَصَارَ له بهِ صُورةً في نفْسِكَ، فَأَكْثَرُ وَصْفِ الواصفين للأشياء عَلى هذا يجري، وإلى هذا الْقَدْرِ يَنْتَهِي"[43]. لقد تفطّن الوزير ابن سعدان إلى مناورة التوحيدي لتجنّب الجواب عن سؤاله، وهو ما يؤكِّد امتلاكه لناصية التأويل وإتقانه لفنون الكلام والتّحاور. وإلى جانب هذا تفصح بعض

الملفوظات عن اطّلاع واسع ودراية عميقة لدى هذا المخاطب، مثل:" قال: ورأيتُ الحاتميَّ يقولُ: عَشْرُ كَلماتٍ جاءَتْ وَعَيْنُها عَيْنٌ ولامُها وَاوٌ، ولم أوثر شَرْحَهُ لها لثِقْلِ رُوحِه، ومُغَالاتِه بنفْسِهِ، وكأنّه لا عِلْمَ إلا عندَهُ، ولا فَائِدَةَ إلا هِيَ مَعَهُ، فهل في حِفْظِكَ هذه الكلماتُ؟"[44]. ويقول في ملفوظ آخر:" وقال: صدق القائل في العرب: منعوا الطعام وأُعْطوا الكلام"[45].

يتَّضح، من خلال ما سبق، أن المخاطب/ الوزير ابن سعدان يضطلع، في مسامرات الإمتاع والمؤانسة، بدورين يتقاطعان ويتداخلان؛ فهو المخاطَبُ الَّذي يتوجّه إليه المتكلِّم/ التوحيديّ بالخطابِ المسَامراتي، وهو نفسه المتكلّم الذي يتدخّل بين الحين والآخر. وقد سمحت الآثار الكلاميَّة التي تصدر عنه بتقديم صورة عنه، فقد تجلَّى في صورة المثقف الحريصِ على التَّباحث في قضايا الفكر والمعرفة، والإنسان الشَّغوف بتنمية مداركه وأفكاره. بيدَ أنَّ صورة المثقف هذه، لم تغطِّ الجانب الآخر من ابن سعدان، وهو الجانب السّياسيّ.

تظهرُ شخصيَّة السّياسيّ واضحة في ملفوظات عديدة؛ وتفصَحُ شواهِدُ كثيرةٌ عن الملمح السِّياسيّ (الاستخباراتي)[46] الذي يُميِّز شخصية الوزير؛ فهو يبدو مطّلعا بما يجول في وزارته، وحريصا على تتبّع أخبارِ المقرَّبينَ منه، ولعلَّ التّوحيدي واحد من الَّذين أحصى عليهم حركاتِهِ وسَكَنَاتِهِ، لنتأمّل هذا الملفوظ:" إنّي أُريدُ أنْ أسْأَلَكَ عن ابْنِ عبَّاد، فقد انْتَجَعْتَه وخَبِرتَه وحَضَرْتَ مجلِسَهُ، وعن أَخْلاقِهِ وَمَذْهِبِهِ وَعَادَتِه، وعَنْ عِلْمِهِ وَبَلاغَتِهِ، وَغَالبِ ما هو عَلَيهِ، ومَغْلُوبِ ما لديه، فما أظنُّ أنّي أجدُ مثلكَ في الخبرِ عنْهُ، والوصْفِ له"[47].

ويقول أيضا في مكان آخر:"فَقَدْ قَالَ لِي القَائِلُ: إنَّكَ مِنْ خُلَصَائِه"[48]. تُبيّن هذه الشَّواهد دراية الوزير ومعرفته الدَّقيقة بالتَّوحيدي وبتفاصيل حياته ومجالسيه وأصدقائه وجيرانه، كما تكشف لنا، من جهة أخرى، صورة السياسيّ اليقظ والنَّبيه الَّذي لا يدَّخِرُ جهدًا في تتبّع أحوال المجتمع ومراقبة الشَّخصيات المثيرة للشُّكوك والمخاوف.

وتتبدّى صورة ابن سعدان السياسيّة بجلاء في تساؤلاته الّتي يُفاجئ بها التَّوحيدي في المجلس، إذ تبرز فضول هذا الوزير تجاه كثير من الشخصيّات، ممَّا جعله يتقصى عنها ويباحث في

سيرتها، ويفتِّش عن أفكارِها ومقاصدِها، وقد استغل معرفة التَّوحيدي بها في تحقيق غايته. ومن الأمثلة الدّالة نسوق ما يلي تمثيلا لا حصرا:

- إنّي أُريدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاد.[49]
- فقال: أَوَّلُ ما أسألُكَ عَنْهُ حَديثُ أبي سُلَيْمَان المنطقيّ كيْفَ كانَ كَلامُه فينا، وكيفَ كانَ رضَاهُ عَنّا وَرَجَاؤُه بِنَا، فَقَدْ بَلَغَنِي أنَّكَ جَارُهُ ومُعَاشِرُهُ، وَلَصيقُهُ ومُلازِمُهُ وَقَافِي خَطْوِهِ وَأَثَرِهِ، وَحَافِظُ غَايَةِ خُبْرِهِ.[50]
- قال: بلَغَني أنَّ أبا سُلَيْمَان يَزُورُ أيَّامَ الجمعةِ رُسُلَ سِجِسْتَانَ لَمَّا وَيَظَلُّ عِنْدَهُمْ طَاعِمًا ناعِمًا، ويَأْنَسُ بأنكَ مَعَهُ، فَمَنْ يحضُرْ ذلك المكَانَ؟[51]
- كيفَ رِضَاكَ عَنْ أبي الوفَاءِ؟[52]
- قال: أفَمَا تَعْرِفُ أَحَدًا تَسْأَلُهُ عَنْهُ ممَّنْ كَانَ يُخالِطُه ويُبَاسِطُه؟[53]
- حدّثني عمَّا تَسْمعُ مِنَ العَامَّةِ في حَدِيثِنَا.[54]

تكشف هذه التَّسَاؤلات جُنوح المخاطب إلى تقصّي الحقائق المرتبطة بالشّخصيّات التي تثير حفيظته وتُقْلِقُ راحتَهُ[55]، وإن كانتْ استفساراتُ الوزيرِ لا طائلَ يرجى منها من الناحيَّةِ المعرفيَّة النَّظريَّة، إلا أنَّها في غاية الأهمّية لوزير يدير شؤون السُّلطة، ويسهر على الحفاظ على استقرار حكمه؛ فهذه الإضاءات تصوِّر له الواقع الثّقافيّ والاجتماعيّ، وتقرِّب له اهتمامات العلماء في المجالسِ، كما تبصّره بأخبار العامّة وأحوالها، ممَّا يجعل الوزير على اطِّلاع دائم بمجريات دولته. ولهذا الغرض استحالت أسئلة ابن سعدان "ضربًا من التحقيقات البوليسية"[56] كما أشار أحد الباحثين.

ونستنج من خلال ما سبق أن المخاطب كان فاعلا ومشاركا في غمار الجلسات الحوارية التي وثّقها التّوحيدي في مسامراته، وقد رصدنا تجلّيات هذه التفاعلات من خلال كشف صورة المخاطب التي تراءى بها في سطور الكتاب، وإلى جانب هذا نجد حضورا بارزا لاستجابات هذا المخاطب، ويمكن رصد نماذج منها:

- هَذَا فِي الحُسْنِ نِهايَة[57].
- هذا واللهِ طَرِيفٌ[58].
- هذا كلامٌ عَجِيبٌ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ عَلى هَذا الشَّرْحِ والتَّفصِيلِ[59].
- ما أَكْثَرَ رَوْنَقَ هَذَا الْكَلامِ[60].
- بَلَغْتَ فِي المؤانَسَةِ غَايَةَ الإمْتَاعِ[61].
- ما أَحْسَنَ هَذا المجْلِسَ[62].
- لله درّ هذا النَّفَسِ الطَّوِيلِ والنَّفْثِ الغَزِيرِ[63].

تجسّد هذه العبارات والملفوظات استجابات المخاطب وردود أفعال مادية تجاه خطاب المسامرات الذي اضطلع به المتكلم أبو حيان التوحيدي، ومن خلال التأمّل فيها يمكن القول إنّ الاستراتيجيات الخطابيّة والتقنيات الحجاجيّة والحيل البلاغيّة التي استثمرها المتكلم أسهمت في انتزاع استحسان المخاطب ونيل رضاه؛ لأنّها تجسد انطباعا حسنا وتعبّر عن تفاعل إيجابيّ للمخاطب مع هذه المسامرات، وهي ردود فعل تشيد بأسلوب المتكلم في الحديث، وتمدح طريقته في الكلام، وهي كذلك إطراء لموسوعيته واسترساله في الكلام، وإعجاب شديد بنمطه الهزلي، وقد تجلّت طبيعة الاستجابة البلغية في عدة صورة أسلوبية ولغوية نذكر منها:

النمط الأسلوبي	تجلياته
أسلوب التعجب	ما أكثر ما أحسن لله درّ
القسم	والله طريف
الأحكام الإيجابية	طريف الحسن كلام عجيب

غاية الإمتاع النفس الطويل النفث الغزير	
ما سمعت مثله	النفي

ولتلمّس بلاغة هذه الاستجابات لا بد من تصوّر طابعها المسرحيّ، وتمثّل هذه الانفعالات بوصفها سلوكات مادّية، فهي بمثابة الاستجابات الجماهيرية الواقعية التي نعاينها في الندوات والمؤتمرات والمدرجات كالتصفيق والتصفير، وهي كذلك بمثابة ردود فعل كالتعليق وتسجيل الإعجاب في الفضاءات الافتراضية.

خاتمة:

لقد حاولت الدّراسة أن تسترفد المقولات والمفاهيم التي أفرزتها بعض التوجهات النظرية الحديثة في البلاغة الجديدة، لمقاربة نص نثريّ عربيّ قديم، وثبت اختيارنا على مسامرات الإمتاع والمؤانسة متنا للتّحليل. وختاما يمكن القول إن استثمار الأدوات التي أتاحتها كل من بلاغة الحجاج وبلاغة الجمهور قد أفادنا في استقراء التقنيات الحجاجيّة والحيل البلاغيّة والآليات الإقناعيّة التي سخّرها المتكلم/ أبو حيّان التوحيدي لجذب واستمالة المخاطب/ الوزير ابن سعدان تحقيقا لغاية مركزيّة هي نيل رضاه والتقرب منه والظفر باحتوائه، ومن نتائج التحليل استخلاص ثلاث حيل أساسية استثمرها المتكلم وهي: الاستدراج، والموسوعية، والهزل. وبمقابل هذا سمح لنا تشغيل مقولات بلاغة الجمور واستثمار اجتهادات رائد هذا الاتجاه في العالم العربي "عماد عبد اللطيف" بمقاربة النص النثري مقاربة جديدة تفاعلية لا تحصر بلاغة المخاطب في خطابات معاصرة أو مقامات خطابية معينة كـ"حفلات الغناء الشعبي، ومحافل الخطابة السياسية، وبرامج التوكشو، ومباريات كرة القدم..."[64]، بل تتعدّاه إلى مضمار النصوص الأدبية عامّة والنصوص العربية القديمة على وجه الخصوص، محاولين لفت النّظر إلى أن الأدب العربيّ القديم جدير بمزيد من الدراسة والمقاربة التي تستثمر أدوات التصورات الحديثة. غير أنّ تطبيق مفاهيم بلاغة الجمهور ليس إجراء متعسّفا على النص العربي القديم،

بل إنه عملية مرنة تتخذ أدوات تنسجم مع خصوصيّة هذه النّصوص باعتبارها خطابات تحتفظ بطابعها الشّفوي من جهة، وتحتضن المخاطب بوصفه عنصرا مركزيا حاضرا وفاعلا ومستجيبا بليغا من جهة أخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصدر:

- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت صيدا.

2- المراجع:

- أبو حيان التوحيدي، الصّداقة والصّديق، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر (دمشق) ودار الفكر المعاصر (بيروت)، ط4، 2008م.
- باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية -تداولية، دار كنوز المعرفة، ط1، 2014م.
- توماس أ. سلوان، موسوعة البلاغة، ترجمة: نخبة، إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016م.
- رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة: عمر وكان، أفريقيا الشرق، الدر البيضاء، ط1، 1994م.
- عماد عبد اللطيف، جدل الظاهرة والاستجابة: دراسة في فخاخ البلاغة، ضمن كتاب: البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، منشورات ضفاف-بيروت، ومنشورات الاختلاف- الجزائر، ودار الآمان- المغرب، ط1، 2014م.
- محمد مشبال، البلاغة والأدب: من صور اللغة إلى صور الأسلوب، دار العين، القاهرة، ط1، 2010م.
- محمد مشبال، البلاغة والسرد: جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ط1، 2010م.

- هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي، ترجمة: محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999م.
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1 سنة 1993، بيروت -لبنان.

3- الدراسات:

- صالح بن رمضان:
  - الإمتاع والمؤانسة وطروس الكتابة، حوليات الجامعة التونسية، تونس، العدد 45، 2001م.
  - بين أحلام الناثر وواقع مؤسسة الكتابة في النثر القديم، مجلة جذور، العدد رقم 22 المجلد رقم 10، 1 دجنبر 2005م.
- عماد عبد اللطيف:
  - البلاغة الغربية المعاصرة: مدخل موجّه للباحث العربي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، العدد 10، شتاء 2017م.
  - من التلقي إلى الاستجابة: نحو حقل معرفي جديد في دراسات الأدب، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، العدد 12، 2018م.
- سيف الدين بنزيد، بنية المجلس الأدبي في الإمتاع والمؤانسة، مجلة الحياة الثقافية، العدد 236، 1دجنبر 2012م.

الإحالات:

1 يؤكّد هذا رائد بلاغة الجمهور في العالم العربي عماد عبد اللطيف في قوله:" تحاول بلاغة الجمهور تأسيس إطار نظري لدراسة استجابات الجماهير في فضاءات التواصل العمومي، مع التركيز على الفضاءات الرقمية". راجع: البلاغة الغربية المعاصرة: مدخل موجّه للباحث العربي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، العدد 10، شتاء 2017م، ص: 66.

2 محمد مشبال، البلاغة والأدب: من صور اللغة إلى صور الأسلوب، دار العين، القاهرة، ط1، 2010م، ص: 9.

3 نفسه، ص: 54.

رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة: عمر وكان، أفريقيا الشرق، الدر البيضاء، ط1، 1994م، 4ص:20.

5 جاء في موسوعة البلاغة توضيحا لمفهوم الجمهور ما يلي:"لقد كان الجمهور على مدار زمن طويل محور التراث البلاغي، وعادة ما تشير تعريفات هذا المصطلح إلى شخص حقيقي أو إلى مجموعة من الأشخاص التي ترى أو تسمع أو تقرأ حدثا أو عملا ما. أحد المسلمات الأساسية في البلاغة هي أن الخطاب يؤلَّف في ضوء هؤلاء الذين سيسمعونه أو سيقرأونه". موسوعة البلاغة، ج1، ص:215.

6 عماد عبد اللطيف، جدل الظاهرة والاستجابة: دراسة في فخاخ البلاغة، ضمن كتاب: البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، منشورات ضفاف-بيروت، ومنشورات الاختلاف- الجزائر، ودار الآمان- المغرب، ط1، 2014م، ص:203.

7 نفسه، ص: 206.

8 يحيل مصطلح 'الفخاخ البلاغية' إلى مجموعة من التقنيات أو الحيل أو الأساليب اللغوية والبلاغية التي يتم تصميمها لاصطياد استجابات الاستحسان من الجمهور. راجع: جدل الظاهرة والاستجابة: دراسة في فخاخ البلاغة، مرجع مذكور، ص:206.

9 نفسه، ص: 206.

10 هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي، ترجمة: محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999م، ص: 25.

11 توماس أ. سلوان، موسوعة البلاغة، ترجمة: نخبة، إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016م، ج1، ص:215.

12 لاحظ رائد بلاغة الجمهور عماد عبد اللطيف "ندرة الكتابات العربية التي حاولت الكشف عن العلاقة بين الظواهر البلاغية (اللغوية والأدائية) التي تشكل الخطاب البلاغي، والاستجابة الفعلية (الخطابية وغير الخطابية) التي يقوم المتلقون بإنتاجها أثناء تلقي الخطاب وعقبه. لقد كان مفهوم الوظيفة البلاغية يحيل غالبا إلى الأثر المقصود، الذي يتوخى المتكلم إحداثه في المتلقي. أما التأثير الفعلي الذي يحدثه الخطاب، والذي يتجسد على أفضل نحو في استجابات المتلقي، فإنه لم يحظ إلا بالقليل من الاهتمام من دارسي البلاغة العربية". جدل الظاهرة والاستجابة: دراسة في فخاخ البلاغة، مرجع مذكور، ص:205. وإذا كانت هذه الملاحظة تهم تطبيق بلاغة المخاطب بشكل عام فإن الدراسات التي عمدت إلى قراءة النثر العربي القديم من هذه الزاوية تكاد تكون منعدمة.

13 هو العنوان الفرعي لكتاب الإمتاع والمؤانسة في تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين. ومن الباحثين الذين ذهبوا إلى اعتبار كتاب الإمتاع والمؤانسة مسامرات نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر:

- إبراهيم عبد العزيز زيد، السرد في التراث العربي: كتابات أبي حيان التوحيدي نموذجًا، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 2009م، ص: 58.

- هشام مشبال، البلاغة والسرد والسلطة في الإمتاع والمؤانسة، دار كنوز المعرفة، ط1، 2015م، ص:31.

14 نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- ألفت كمال الروبي، محاورات التوحيدي وتعدد الأصوات، مجلة فصول، ع4، أكتوبر 1995م، ص:143.
- لطفي فكري محمد الجودي، فعل الكتابة النثرية عند أبي حيان التوحيدي: قراءة في إشكالية النوع ومكونات البنية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ص:95.

15 من الباحثين الذي انتهوا إلى هذه الخصوصية النوعية الدقيقة لكتاب الإمتاع والمؤانسة نذكر على سبيل التمثيل:

- باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية -تداولية، دار كنوز المعرفة، ط1، 2014م، ص: 117.
- عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي: خصائصه الفنّية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2016م، ص: 263.

16 الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص: 8.

17 يقول صالح بن رمضان:" لقد ألف أبو حيان التوحيدي هذا الكتاب في إطار ما نسميه بالتّلقّظ الذاتي، ونعني بهذا أنه أعاد فيه كتابة جزء من ذاكرته الفكرية والأدبية والوجدانية، وروى فيه فصلا من فصول حياته في مجلس الوزير ابن سعدان. وقد رأينا أن أبا حيّان يحرص على مجاوزة هذه الذاكرة بمحو بعض آثارها، وبتحويل بعضها الآخر إلى جزء من العالم السردي المتخيّل في كتاب الإمتاع."أُنظر: الإمتاع والمؤانسة وطروس الكتابة، حوليات الجامعة التونسية، تونس، العدد 45، 2001م، ص: 243.

18 تقول الباحثة الفرنسية كاترين أوركيوني مؤكدة التصاق الذاتية بجميع الخطابات بما فيها الخطابات التي تبدو لنا علمية وموضوعية:" لا يوجد جنس من أجناس الخطاب يفلت من هيمنة الذاتية، لا خطاب المؤرخين ولا خطاب الجغرافيين ولا خطاب المعجميين ولا خطاب رجال القانون ولا حتى خطاب علماء الرياضيات أنفسهم." نقلا عن: المتكلم في السرد العربي القديم، ص: 96.

19 الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص: 13. ويقول في نصّ آخر يكشف هذا البعد في شخصية التوحيدي: والْعُزْلَةُ مَحْمُودَةٌ إلا أَنَّها مُحْتَاجَةٌ إلى الكِفَايَةِ، والْقَنَاعَةُ مُرَّةٌ فَكِهَةٌ ولكِنَّها فَقِيرَةٌ إلى البُلْغَةِ، وصِيَانَةُ النَّفْسِ حَسَنَةٌ إلا أَنَّها كُلْفَةٌ مُحْرِجَةٌ إنْ لَمْ تَكُنْ لَهَا أَدَاةٌ تُجِدُّها وفَاشِيَةٌ تَمُدُّها، وتَرْكُ خِدْمَةِ السُّلْطَانِ غَيْرُ الْمُمْكِنِ ولا يُسْتَطَاعُ إلا بِدِينٍ مَتِينٍ، وَرَغْبَةٍ في الآخِرَةِ شَدِيدَةٍ، وفِطَامٍ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا صَعْبٍ، ولِسَانٍ بالْحُلْوِ والْحَامِضِ يَلْغ"، نفسه، ص:14.

20 وصف لصديقه أبي الوفاء المهندس في مقدمة الكتاب: هذا وأَنْتَ غِرٌّ لا هَيْأَةَ لَكَ في لِقَاءِ الكِبَرَاءِ، ومُحَاوَرَةِ الوُزَرَاءِ، نفسه، ج1، ص:5.

21 معجم الأدباء، ج5، ص:1923.

22 الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص: 21.

23 موسوعة البلاغة، ج1، ص: 225.

24 المسائل التي يثيرها الوزير لا تتعلق – أغلبها- بإعداد مسبق فهي ترتبط بالمجلس واسترسال الكلام فيه، ونفهم هذا من قول الوزير نفسه:" تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس، ولأتعرف منك أشياء كثيرة مختلفة تردّد في نفسي على مر الزمان، لا أحصيها لك في هذا الوقت، لكنّي أنثرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يسنح ويعرض." الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص: 19. وقد أشار أحمد أمين إلى هذا الملمح قائلا:" وموضوعات

الكتاب متنوعة تنوعًا ظريفًا لا تخضع لترتيب ولا تبويب، إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث، حتى لنجد في الكتاب مسائل من كل علم وفن؛ فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس، وغير ذلك مما يطول شرحه." مقدمة الإمتاع والمؤانسة، ص:س.

25 الإمتاع والمؤانسة، ج2، ص: 23.

26 الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص:19.

27 الصداقة والصديق، ص: 32.

28 في عدديْ مجلة فصول المصرية (المجلّد 14 العددان 3 خريف 1995م، و4 شتاء 1996م.) مقالات مهمّة أسهبت في الحديث عن حياة أبي حيّان التوحيدي وأساتذته ومؤلّفاته، يمكن الرّجوع إليها للتّوسع أكثر.

29 الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص:20.

30 يؤكّد مصطفى ناصف أن تصور التوحيدي للكتابة قائم على مبدإ المزاوجة بين الإنفاع والإمتاع، يقول:" كان أبو حيّان في هذا شديد الإعجاب بالجاحظ، كان يتطلع إلى ما يسمى الحديث الجيد، وفي وصف هذا الحديث يستعمل كلمة العقل، وهي كلمة شديدة المرونة والاختلاط، ولكن من الواضح صلة بعض استعمالاتها بالحس الفكاهي والجدة والطرافة." أُنظر: محاورات مع النثر العربي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 218، فبراير 1997م، ص:161.

31 محمد مشبال، البلاغة والسرد: جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص:61.

32 سبق أن أومأ محمد مشبال إلى أن "الاعتدال كان مطلبا بلاغيا" تصوّر كرسته أخبار الجاحظ، وتشرّبه التوحيدي وسعى إلى تكريسه في أخباره. أُنظر كتابه: البلاغة والسرد: جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص:75.

33 صالح بن رمضان، بين أحلام الناثر وواقع مؤسسة الكتابة في النثر القديم، مجلة جذور، العدد رقم 22 المجلد رقم 10، 1 دجنبر 2005م، ص:19-20.

34 أشار هشام مشبال إلى وظائف "ملحة الوداع" في كتاب الإمتاع والمؤانسة، حيث حصرها في وظيفتين:"تعنى الوظيفة الأولى بجلب الطرافة إلى الأخبار ذات الصبغة التعليمية المعرفية وتلوينها بالطابع الإمتاعي الشامل، وكذلك الترويح عن متلقي الخطاب المباشر والضمني، والإسهام إلى جانب ذلك في تعميق سمة الموسوعية التي تسم سرد التوحيدي. بينما تتوخى الوظيفة الثانية خدمة أو تفعيل أغراض بلاغية متعددة، تسعى جميعها إلى نسج حكمة فاعلة توجه أو تعلم أو تثقف؛ بمعنى أنها تمارس وظيفة ما من وظائف التواصل." أُنظر كتابه: البلاغة والسرد والسلطة في الإمتاع والمؤانسة، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2015م، ص:191.

35 عماد عبد اللطيف، من التلقي إلى الاستجابة: نحو حقل معرفي جديد في دراسات الأدب، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، العدد 12، 2018م، ص: 16.

36 نفسه، ج1، ص:20.

37 سيف الدين بنزيد، بنية المجلس الأدبي في الإمتاع والمؤانسة، مجلة الحياة الثقافية، العدد 236، 1دجنبر 2012م، ص:112.

38 الإمتاع والمؤانسة، ج1، صفحات: 70-206- 222. وج 2، صفحات: 2- 153.

39 نفســه، ج3، ص: 106.

40 نفســه، ص: 107.

41 تميّز أروكيوني بين أربع كفاءات للمتكلّم:

- الكفاءة الألسنية اللغوية وتُعنى بالعناصر الدالة النصية والسياقية الحالية النصية.
- الكفاءة الموسوعية وهي تمثُل باعتبارها خزانا رحبا يضم معلومات خارجية تعبيرية أدائية تتناول السياق، أو باعتبارها مجموعة معارف ومعتقدات.
- الكفاءة المنطقية المتمثلة في الآليات التداولية التي يستعملها المتكلم في اللغة الطبيعية.
- الكفاءة البلاغية التداولية المتمثلة في قوانين الخطاب.

أُنظر الفصل الرابع "كفاءات المتكلّمين"، من كتابها: "المضمر"، ترجمة: ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة- بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2008م، ص:283 وما بعدها. وقد قدّم باشا العيادي تكثيفا مفيدا لهذه الكفاءات الأربعة، أُنظر كتابه: فن المناظرة في الأدب العربي، ص: 399-400.

42 الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص: 104.

43 الإمتاع والمؤانسة، ص: 33.

44 نفسه، ج3، ص: 126.

45 نفسه، ص: 69.

46 يشيرُ الحبيبُ شبيِّل إلى استغلال السلطة لمواهب المثقفين؛ فابن سعدان "حاول أن يستعمل أبا حيّان عينًا على رجلٍ يجعى ابن موسى؛ لكنّ التوحيدي رفض الخدمة متعللا بأنّ ذلك غير لائق بحاله فقال مخاطبًا الوزير:.. قيل: (أي للتَّوحيدي) ينبغي أن تكون عينًا عليه، وأنا لو قرَّرتُ لك الحديث لما رأيته لائقًا بحالي." المجتمع والرؤية: قراءة نصية في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، ص:101.

47 الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص: 102.

48 نفسه، ج1، ص: 102.

49 نفسه، ج1، ص:53.

50 نفسه، ص:29.

51 الإمتاع والمؤانسة، ص: 42.

52 نفسه، ص: 50.

53 نفسه، ص: 51.

54 نفسه، ج2، ص:26.

55 إنَّ ما يُسوّغُ هذا الطَّابَعَ الاستخباراتي، انتشارُ المكائد والدّسائس والعصابات الفكرية المناوئة لتوجّهات السّلطة، وقد أشار حسن محمد حسن حماد إلى هذه الأجواء الّتي سادت في عصر التّوحيدي في قوله:" وهو عصر اتّسم على المستوى السياسيّ بالفوضى والانحطاط والصّراع، وكانت الحالة الاجتماعية لا تقلّ انحطاطًا عن الحالة السياسية... وكثر الصّراع بينهم في جو تسوده الدّسائس والمؤامرات والوشايات والرياء." أُنظر دراسته:

الاغتراب عند أبي حيان التوحيدي: دراسة فلسفية من خلال الفكر الوجودي، مجلة فصول المصرية، المجلد 14، العدد 3، خريف 1995م، ص: 77-78.

56 محمد مراصي، المثقف والسلطان: أبو حيان التوحيدي والوزير ابن سعدان نموذجا، مجلة المسار، تونس، العدد 56، أبريل 2002م، ص:100.

57 الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص:41.

58 نفسه، ج1، ص: 161.

59 نفسه، ج2، ص:22.

60 الإمتاع والمؤانسة، ص:23.

61 نفسه، ص:23.

62 نفسه، ص:103.

63 نفسه، ج1، ص:95.

64 عماد عبد اللطيف، عماد عبد اللطيف، من التلقي إلى الاستجابة: نحو حقل معرفي جديد في دراسات الأدب، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، العدد 12، 2018م، ص:16.